

«وَجَعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» ٢٤ رجب ١٤٤٣ هـ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: نِعَمَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ لَا تُحْصَى. فَقَدْ خَلَقَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ، وَرَبَّاهُمْ بِالنِّعَمِ، وَهَدَاهُمْ إِلَى مَا يَنْفَعُهُمْ، وَصَرَفَ عَنْهُمْ مَا يَضُرُّهُمْ، وَحَذَّرَهُمْ مِمَّا يُوبِقُهُمْ وَيُهْلِكُهُمْ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾.

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَا يُبْصِرُونَ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا النِّعَمَ الدُّنْيَوِيَّةَ الْحَسِيَّةَ: كَالصِّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ وَالتَّمَتُّعِ بِالْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَرَاجِبِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمُتَمَعِ وَالْمَلَذَاتِ الزَّائِلَةِ، وَيَغْفُلُونَ عَنِ النِّعَمِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي شَرَعَهَا اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ، وَهَدَاهُمْ إِلَيْهَا، وَهِيَ أَعْظَمُ أَثَرًا عَلَى الْعِبَادِ، وَأَكْثَرُ نَفْعًا لَهُمْ، فَلَا يَرُونَ فِيهَا إِلَّا أَنَّهَا تَكَالِيفُ شَرْعِيَّةٌ، وَفَرَائِضُ رَبَّانِيَّةٌ يُوجِرُونَ عَلَى آدَائِهَا، وَيَعَاقِبُونَ عَلَى التَّفْرِيطِ فِيهَا. وَقَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُدْرِكُ الْمَعَانِيَ الْعَظِيمَةَ لِهَذِهِ الْفَرَائِضِ وَالْعِبَادَاتِ، وَأَثَرَهَا فِي صَلَاحِ قُلُوبِ الْعِبَادِ، وَاسْتِقَامَةِ أُمُورِهِمْ، وَهَنَاءِ عَيْشِهِمْ بِهَا، فَهِيَ جَنَّةُ الدُّنْيَا الْمُوَصَّلَةُ إِلَى جَنَّةِ الْآخِرَةِ. فَوَاجِبٌ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَشْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى حِينَ شَرَعَهَا لَهُمْ، وَأَوْجَبَهَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ يَشْكُرُوهُ سُبْحَانَهُ عَلَى مَا هَدَاهُمْ لِمَعْرِفَتِهَا، وَوَفَّقَهُمْ لِآدَائِهَا، فَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ لَمْ يَعْلَمْهَا، وَكَمْ مِنْ مَحْرُومٍ فَرَطَ فِي آدَائِهَا، وَكَمْ مِنْ مُسْتَكْبِرٍ أَعْرَضَ عَنْهَا؟!!

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ الصَّلَاةَ أَعْظَمُ الْفَرَائِضِ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ، وَهِيَ عَمُودُهُ الَّذِي لَا قِيَامَ لَهُ إِلَّا بِهَا، وَلَا حَظٌّ فِي الْإِسْلَامِ لِمَنْ تَرَكَهَا، وَمَنْ ضَيَّعَهَا فَقَدْ ضَيَّعَ دِينَهُ، وَهُوَ لِمَا سِوَاهَا أَضْيَعُ؛ فَلَا أَمَانَةَ لَهُ. وَالصَّلَاةُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى أَحْسَنِ الْأَقْوَالِ، وَأَفْضَلِ الْأَفْعَالِ، فَمِنْ أَقْوَالِهَا: التَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ وَالتَّسْبِيحُ وَأَنْوَاعُ الذِّكْرِ وَالِدُّعَاءِ، وَمِنْ أَفْعَالِهَا الرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ وَقَدْ بَلَغَتِ الْغَايَةَ فِي الذُّلِّ وَالتَّعْظِيمِ لِلَّهِ تَعَالَى.

وَمِمَّا يُدُلُّ عَلَى مَكَانَةِ الصَّلَاةِ، وَعَظِيمِ مَنَزَلَتِهَا عِنْدَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ أُمُورٌ:

الأول: الملائكة والنبيون - وهم أفضل خلق الله تعالى، وأعلمهم به سبحانه - يتقربون إلى الله تعالى بها. فالبيت المعمور في السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك يصلون فيه لله تعالى، ثم لا يعودون، كما في «الصحيحين» عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث الإسراء: «ثم رُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، فَقُلْتُ: يَا جَبْرِيْلُ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ، إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا فِيهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ». فسبحان من تعبدوا له، وسبحان من أحصاهم عددًا، وأحاط بهم علمًا. وأما الأنبياء عليهم السلام فإن القرآن مليءٌ بذكر قنوتهم وسجودهم ورُكوعهم وصلاتهم.

الثاني: الصلاة عمود الدين الذي لا يقوم إلا به. أخرج الإمام أحمد، والترمذي، وقال: «حسن صحيح»، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ». الثالث: أول ما يحاسب عليه العبد من عمله الصلاة، فصلاح عمله وفساده بصلاح صلاته وفسادها. أخرج الطبراني في «الأوسط»، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الصَّلَاةُ، فَإِنْ صَلَحَتْ؛ صَلَحَ سَائِرُ عَمَلِهِ، وَإِنْ فَسَدَتْ؛ فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ».

الرابع: آخر ما يُفقد من الدين الصلاة، فإذا ذهب آخر الدين لم يبق شيء منه. أخرج أحمد والحاكم وابن حبان، وصححه العلامة الألباني رحمته الله في «التعليقات الحسان»، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالتِّي تَلِيهَا فَأَوْلَهُنَّ نَقْضًا: الْحُكْمُ، وَآخِرُهُنَّ: الصَّلَاةُ».

الخامس: الصلاة آخر وصية أوصى بها النبي صلى الله عليه وسلم أمته. أخرج أحمد وابن ماجه، وصححه العلامة

الألباني رحمه الله، عن أنس رضي الله عنه قال: كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضره الموت: «الصلاة وما ملكت أيمانكم، الصلاة وما ملكت أيمانكم». حتى جعل رسول الله ﷺ يُغرغرُ بها صدره، وما يكادُ يفيضُ بها لسانه».

أيها المسلمون: الصلاة من أوائل الأعمال التي دعي النبي ﷺ لإقامتها، وجاء في بعض السور المكيّة الأمرُ بها. كما في سورة الروم، قال الله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، بل إن أول سورة نزلت وهي «اقرأ»، جاء في آخرها: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾. فأطلق سبحانه السجود وأراد الصلاة؛ لأنَّ السجود أخص صفاتها، وربط بين السجود والاقتراب من الله تعالى، وهذا مما يدلُّ على أنَّ الصلاة أعظم قربة إلى الله تعالى بعد الشهادتين؛ إذ وجه إليها رسوله ﷺ من أول الأمر. ودلت سيرة النبي ﷺ على أنه كان يصلي هو ومن آمن معه في أول الإسلام وهم قليل، أخرج الإمام أحمد في «مسنده»، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في «المشكاة»، عن زيد بن حارثة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: أن جبريل ﷺ أتاه في أول ما أوحى إليه، فعلمه الوضوء والصلاة. وأخرج الإمام أحمد في «مسنده» أيضًا، وصححه العلامة أحمد شاكر رحمه الله، عن عفيف الكندي رضي الله عنه قال: كنت امرأ تاجرًا، فقدمت الحج، فأتيت العباس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة، وكان امرأ تاجرًا، فوالله إنني لعنده بمنى، إذ خرج رجل من خباء قريب منه، فنظر إلى الشمس فلما رآها مالت - يعني قام يصلي - ثم خرجت امرأة من ذلك الخباء الذي خرج منه ذلك الرجل، فقامت خلفه تُصلي، ثم خرج غلام حين راهق الحلم من ذلك الخباء، فقام معه يصلي، فقلت للعباس: من هذا يا عباس؟ قال: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي، فقلت: من هذه المرأة؟ قال: هذه امرأته خديجة ابنة خويلد، قلت: من هذا الفتى؟ قال: هذا علي بن أبي طالب ابن عمه. فقلت: فما هذا

الَّذِي يَضَعُ؟ قَالَ: يُصَلِّي، وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَلَمْ يَتَّبِعْهُ عَلَى أَمْرِهِ إِلَّا أَمْرَاتُهُ، وَابْنُ عَمِّهِ هَذَا الْفَتَى، وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَيُفْتَحُ عَلَيْهِ كُنُوزُ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، فَكَانَ عَفِيفٌ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ الْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ يَقُولُ - وَأَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَحَسَنَ إِسْلَامُهُ - : لَوْ كَانَ اللَّهُ رَزَقَنِي الْإِسْلَامَ يَوْمَئِذٍ، فَأَكُونُ ثَالِثًا مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فَكَانُوا يُصَلُّونَ صَلَاتَيْنِ: الْأُولَى فِي أَوَّلِ النَّهَارِ، وَالثَّانِيَةَ فِي آخِرِهِ، ثُمَّ فُرِضَتِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ فِي لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ، إِذْ صَعِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى مَا فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ حَتَّى سَمِعَ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ تَكْتُبُ الْقَدَرَ، فَأَخَذَ فَرِيضَةَ الصَّلَاةِ عَنْ رَبِّهِ جَلَّ جَلَالُهُ مُبَاشَرَةً بِلَا وَاسِطَةٍ، وَفَرَضَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى أُمَّتِهِ خَمْسِينَ صَلَاةً، ثُمَّ خَفَّفَهَا إِلَى خَمْسٍ فِي الْأَدَاءِ، وَخَمْسِينَ فِي الْأَجْرِ وَالْمَثُوبَةِ. كَمَا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَفَرَضَ اللَّهُ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً»، قَالَ: فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى أَمَرَ بِمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَاذَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قَالَ: قُلْتُ: فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ لِي مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَارْجِعْ رَبَّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، قَالَ: فَارْجَعْتُ رَبِّي، فَوَضَعَ شَطْرَهَا، قَالَ: فَارْجَعْتُ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَخْبَرْتُهُ قَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، قَالَ: فَارْجَعْتُ رَبِّي، فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ، وَهِيَ خَمْسُونَ، لَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ، قَالَ: فَارْجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ، فَقُلْتُ: قَدْ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي».

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى»: وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الصَّلَاةَ أَوَّلَ مَا فُرِضَتْ كَانَتْ رَكْعَتَيْنِ بِالْغَدَاةِ وَرَكْعَتَيْنِ بِالْعِشِيِّ، ثُمَّ فُرِضَتِ الْخَمْسُ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، وَكَانَتْ رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ، فَلَمَّا هَاجَرَ أُقِرَّتْ صَلَاةُ السَّفَرِ، وَزِيدَ فِي صَلَاةِ الْحَضَرِ، وَكَانَتِ الصَّلَاةُ تُكْمَلُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، فَكَانُوا أَوَّلًا يَتَكَلَّمُونَ فِي الصَّلَاةِ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا تَشَهُدٌ، ثُمَّ أُمِرُوا بِالتَّشَهُدِ، وَحُرِّمَ عَلَيْهِمُ الْكَلَامُ، وَكَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ بِمَكَّةَ لَهُمْ أَدَانٌ، وَإِنَّمَا شُرِعَ الْأَدَانُ بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ. اهـ

فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ فِي الصَّلَاةِ، وَاحْمِلُوا عَلَيْهَا أَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَكُمْ، وَاحْذَرُوا مِنْ إِضَاعَتِهَا.